العقل والقلب

جاء في الأخبار على لسان الدكتور ولتر رايدل العالم الألماني الذي يعيش في أمريكا الآن إنه في مدى خمسة وعشرين عاماً سيستطيع الإنسان أن يتنقل بالطائرة بين الأجرام السماوية المختلفة . ولهذا الخبر مغزى أخلاقي بعيد المدى . فهو يعطينا صورة واضحة لما وصل إليه العلم من نضج وقدرة على تسخير قوى الطبيعة لخدمة الانسان فاستحق هذا بحق أن يلقب بسيد الطبيعة وقاهرها .

لقد مضى الزمن الذي عالج الانسان فيه مشاكله وقضى حاجاته بالالتجاء الى الأوهام والخرافات . فهو لم يعد في حاجة الى بساط الريح وخاتم سليمان . لأن العلم يحمله يطير فعلاً من بلد الى آخر ، بل سيجعله في المستقبل القريب يتنقل بين الأجرام السماوية المختلفة . والعلم يقدم له من الخيرات ويوفر له من أسباب الحياة ما لم يخطر على بال أحد منها بلغ به الخيال .

لم يصل الإنسان الى هذا ولم يصبح بحق سيد الكون إلا حينما آمن لنفسه وآمن بالعقل وبقدرته على الكشف عن معميات الطبيعة .

ولكن يؤسفنا أن نجد في هذا الوقت الذي يعلق فيه الناس آمالاً كباراً على العلم لإنقاذ العالم من مشاكله بما سيوفره من أسباب الرزق والحياة الموفورة ، جماعة من الكتاب تنكر العقل وتقلل من شأن العلم .

فقد جاء في مقبلية « بيت النمل » على لسان الجنية التي ظهرت للشاب المهندس ما يأتي :

« من سوء حظي أنك رجل مفكر . قلما تظهر جنية لرجل مفكر . إنما أكثر ظهورنا للبسطاء والعامة ... الخ » .

وفي مكان آخر قالت الجنية : « نعم .. نعم هناك . هذا الحارس الثقيل الذي يقف

باب قلبك . حارس هو عندك مسلح بسلاح العلوم الرياضية والمنطق . . كيف أستطيع اقناعه ولكني لن أتراجع . . سأحاول جهد الطاقة الخ . . . .

وخلاصة هذا الاتجاه هو أن العقل البشري قاصر عن فهم العالم وحل مشاكله . وان الانسان يستطيع أن ينقذ نفسه ويحل أزماته عن طريق القلب والاستسلام لأحلامه . فالعالم تافه لا يستحق الالتفات وحياة الانسان على هذه الأرض فقاعة هواء .

هذه دعوة خطيرة من غير شك لأنها دعوة ضد الحياة نفسها .

* * *

ولو سلمنا جدلاً بما ذهبت إليه هذه الدعوة فإن الايمان بالقلب لا يبرر الاسراف في التحقير من شأن العقل والاقلال من قيمة الحياة . فإن كبار المشيعين للقلب كبرغسون مثلاً لم يبلغ هذا الشطط البعيد ، بل إنه قال عن العقل إنه أسمى ما في البشرية وإنه النور الذي استطاعت به الحياة أن تدرك ذاتها وإنه المرشد النبي قادها من تقدمها الى تقدم حتى وصلت الى ما هي عليه الآن . وذهب غيره الى أن مصير الانسان أصبح في يد العقل حينما انتقل من حياة الفطرة الى حياة التحضر .

إذن فهذه دعوة تحارب غريزة الانسان ورغبته الأصيلة ، التي اكتسبها بالمران والخبرة في اقتحام الحياة وا كتشاف أسرارها والقبض على عناصر الطبيعة وإخضاعها لارادته ، فاستطاع في النهاية أن يكون سيد نفسه .

هذه الدعوة إن دلت على شيء فإنما تدل على أننا لسنا في حاجة الى كهربة خزان أسوان وتصنيع الأمة وتعميم الآلات في الزراعة لزيادة الخير ورفع مستوى المعيشة ، إنها تعني أننا لسنا في حاجة الى الأطباء والمهندسين والكيمائيين والصناع . ولست أدري كيف يمكن أن نستغني بالقلب ، بل بهذه الصورة المحدودة للقلب والشعور ، عن كل هذه الأشياء التي تتعلق بها حياة الأمة .

أعتقد ان الذي يدفعنا الى مثل هذه الأفكار إنما هو الافتقار الى العقل والعلم الذي هو السبيل الوحيد لحل مشاكلنا . ذلك لأنه إذا توفرت للناس حاجاتهم رفاض الخير وعم

وأتيحت الفرصة للكثيرين تبعاً لذلك أن يتعلموا وأن يجدوا أعمالاً منتجة لائقة ، إذا حدث هذا ، وهو لا يحدث إلاَّ إذا آمنا بالعقل البشري وبالعلوم الحديثة ، استطاع الانسان حينئذٍ ان يحس أنه سيد الطبيعة حقاً ، وان حياته جديرة بالعيش ، وانها ليست فقاعة هواء وان عالمه ليس مسرحاً للجن أو بيتاً للنمل .

ولست أدري كيف دخل في وهم أصحاب هذه الدعوة ان هناك تعارضاً بين العقل والقلب أو الشعور ، وأغلب ظني أن ذلك يرجع لتصورهم لحياة القلب تصوراً سلبيًّا جامداً ، والى اعتقادهم بأن الانسان اذا نما عقله ضعف قلبه واضمحلَّ فيه الشعور وهذا فهم خاطىء لقيمة العقل والشعور معاً . فالشعور الذي ينشأ بلا فهم ولا دراية إنما هو شعور أبتر بدائي ، هو مجرَّد انفعال عصبي عقيم جاهل يهدم صاحبه ولا يبنيه . أما الشعور السليم الخصب الذي يفيد صاحبه وينميه فهو الشعور الذي ينتج عن فهم وتعقل .

واذا عرفنا ان غاية الحياة هي الحياة نفسها ، الحياة الموفورة ، أمكننا ان نقول إن رسالة الأدب الحقيقية تقوم على زيادة شعورنا وإحساسنا بالحياة على زيادة انفعالنا وتحسسنا لا تحسساً منشؤه الفهم والعقل . فالعقل ينير الشعور والشعور يخصب العقل ويجعله . فكلما ازدادت معرفة الانسان بالحياة ازداد تحمسه لها ، وكلما ازداد تحمسه لها ازداد اقباله على معرفتها .

اني أومن بالقلب ولكن بالقلب الذي يؤكد معنى الحياة ولا يلغيه ، بالقلب الذي ينير حماس العقل فيدفعه الى اقتحام الطبيعة واخضاعها لسلطانه . حينئذٍ يستطيع الانسان أن يبلغ مرماه من الحرية التي ينشدها . والحرية هنا هي فهم قوانين الطبيعة واحترامها . فهي ليست أنكاراً للحياة والوجود والهروب منهما

نحن في هذا العصر في حاجة ماسة الى مزيد من العقل الذي ينير الشعور ، والى مزيد من الشعور المستنير الذي لا يلغي العقل .

بشرى الضبع